سورة العصر

تأتي سورة العصر في طليعة مجموعة من السور القصار في مبناها، العظيمة في معناها، ختم الله بها كتابه الكريم.

وإن الإنسان ليعجب من حكمة الله ﷻ بختم المصحف، حسب العرضة الأخيرة، بهذه السور، السهلة الألفاظ، الجزلة المعانى، البديعة التراكيب، من قصار المفصل، التي يقرأها عامة المسلمين، ويحفظونها، ويرددونها، في صلواتهم؛ فرائضهم، ونوافلهم، لما تتضمنه من المعاني الكبيرة، التي تحيي القلوب، فلله الحكمة البالغة فيما حكم، وقضى، وقدر.

ومع قصر سورة (العصر) إلا أن الإمام الشافعي – رحمه الله – قال عنها: "لو ما أنزل الله حجةً على خلقه، إلا هذه السورة، لكفتهم"[1] أي: لكانت حجة عليهم، في بيان مقاصد الدين، وأركانه، وآدابه. وليس المراد تضمنها لتفاصيل الشريعة.

مقصد السورة الرئيس:

بيان المنهج الوحيد للنجاة؛ إذ أن الله – سبحانه وتعالى – حكم على الإنسان من حيث هو إنسان– بالخسار، واستثنى مَنْ جمع أربع خصال، يأتي بيانها.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾

يقول الله تعالى: (وَالْعَصْرِ) هذا قسم من الله تعالى بـ(العصر). و(العصر):

1) قيل: هو مطلق الدهر، يعني: الزمان.

2) **وقيل: هو ما بعد الزوال، الذي هو وقت العشي.**

3) وقيل: إن المراد الصلاة نفسها، صلاة العصر.

والأولى حمل هذه المعاني على أولها، وهو الدهر؛ إذ أن ذلك يشمل ما بعد الزوال، وهو وقت العشي، ووقت صلاة العصر، والليل، والنهار، بمعنى أن الله ﷻ أقسم بالعصر، الذي هو

---

[1] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (152/28) انظر تفسير ابن كثير (203/1)، مفتاح دار السعادة (56/1) دار الكتب العلمية (بألفاظ مختلفة).

ظرف الأعمال، صالحها، وسيئها، والذي يترتب عليه إما النجاة، وإما الخسار، فمن المناسب جدًا، أن يقسم الله تعالى بالزمن، الذي هو مضمار الأعمال، وظرفها، لعظيم خطره.

وبمقدار عقل الإنسان، وإيمانه، يكون اهتمامه بالوقت، قال نبينا ﷺ "نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ"رواه البخاري [٢] فكثير من الناس يغبن في صحته، وفي فراغه، فيمضي عليه العمر سبهللا، فلا يبالي، وهو في حال الصحة والفراغ، فإذا ما مرض، أو شغل، تمنى أن لو كان صحيحاً، فارغًا، وهذا هو الغبن الحقيقي.

وقد كان السلف الصالح – رحمهم الله– يعتنون بأوقاتهم غاية العناية، يحسبون الدقائق، والثواني، حتى حفظ عن بعضهم العجب:

فقد ذكر عن المجد ابن تيمية – رحمه الله –: أنه كان يضن بوقته، حتى إنه كان إذا دخل بيت الخلاء، أمر قارئا أن يقرأ، من وراء الحائط [٣]، حتى لا يذهب عليه شيء من وقته، دون فائدة.

ويذكر أن الحافظ ابن رجب – رحمه الله –: كان يضن بوقته، فكان إذا حضره بعض أصحابه، الذين يتشاغلون بالأحاديث الدنيوية، ومجريات الحياة اليومية، يخصص للبقاء معهم، أوراقاً يقطعها، ويرتبها، ويعدها لكتابته، ولا يدع مجلس أصحابه.

فبمقدار ما يشعر المؤمن، باليوم الآخر، وتقوم في قلبه حقائق الإيمان، يشعر بأهمية الوقت، وإذا ضعف ذلك صار الوقت عنده أرخص ما يكون، حتى أنك تجد بعضهم يقول: "نقتل الوقت"، سبحان الله وهل الوقت يقتل؟!، الوقت أغلى الأثمان، وفي هؤلاء يقول الشاعر:

والوقت أعظم ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ هذا جواب القسم. والمقصود: جنس الإنسان. ووقعت اللام في جواب القسم، للتأكيد. والمعنى: أن الإنسان في نقص وهلاك؛ لأن في طبعه قصور،

---

[٢] صحيح البخاري (6412).

[٣] انظر: ذيل طبقات الحنابلة (2/249–252).

وتقصير، يستغلهما، الشيطان، والنفس، والهوى، وغير ذلك من المؤثرات، فتفضي به إلى الهلاك. فالأصل في الإنسان أن يؤول إلى خسار، إلا ما استثني. والمستثنى أقل من المستثنى منه، فلهذا قال تعالى، في مواضع: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال عن إبليس ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: 82-83].

فتجد أن المستثنى هم أهل الإيمان، مما يدل على أن الكثرة الكاثرة، تؤول إلى الخسار، والبوار، ويشهد لذلك قول النبي ﷺ عند وصفه يوم القيامة، لأصحابه ، فقال: "ذَاكَ يَوْمٌ يُنَادِي اللهُ فِيهِ آدَمَ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ فَيَقُولُ: يَا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ، فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ "رواه الترمذي[٤] .

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا): أي صدقوا بقلوبهم، وأيقنوا بخبر الله، وخبر رسوله ﷺ. كما قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]. فأصل الإيمان: التصديق المستلزم للقبول، والإقرار، والإذعان، والرضا. ولهذا ينبغي للعاقل قبل أن يشتغل بإصلاح الظاهر، والعناية بالسنن، والنوافل، أن يصلح قلبه، وأن يتعاهده، فإذا صلح قلبه، انقادت جوارحه، واستسهلت كل عمل صعب، بل وتلذذت به، كما قال نبينا ﷺ "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ: صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ: فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ: الْقَلْبُ"متفق عليه[٥] .

ثم عطف عليه ما هو من لوازمه، التي لا تنفك عنه، ولا تتم إلا به، فقال:

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) يعني: أنهم لم يقتصروا على الإيمان القلبي، بل اتبعوا ذلك بالعمل الصالح. و(الصَّالِحَاتِ): ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، من الأقوال، والأعمال الظاهرة، الباطنة، فكل ذلك صالح.

---

[٤] سنن الترمذي (3169)، وصححه الألباني.

[٥] صحيح البخاري (52)، صحيح مسلم (1599).

ومسألة الإيمان مسألة كبيرة:

فالإيمان عند أهل السنة والجماعة: حقيقة مركبة من القول، والعمل. فالإيمان: قول القلب، واللسان، وعمل القلب، واللسان، والجوارح. ويرون أنه لا انفكاك بين العمل، والتصديق، وأن من زعم وجود تصديق في القلب لا يستلزم عملاً، فهو مخطئ.

وأما من سواهم، فإنهم أرجئوا العمل عن مسمى الإيمان، ولذلك سموا مرجئة؛ يعني أخروا العمل، وأخرجوه عن حقيقة الإيمان، وحده، وتعريفه.

وهؤلاء المرجئة على ثلاثة طبقات:

1) فمنهم -وهم أشدهم -: [**الجهمية**]، المنسوبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي، الذين يقولون: إن الإيمان هو "معرفة القلب"، وربما عبر بعضهم فقال: "تصديق القلب". فيلزم من ذلك إثبات الإيمان للمشركين، واليهود، والنصارى، بل وفرعون، بل وإبليس! لحصول المعرفة والتصديق بل واليقين عندهم.

2) الطائفة الثانية من المرجئة: [**الكرامية**] المنسوبون إلى محمد بن كرام السجستاني، الذين يقولون: "إن الإيمان هو قول اللسان". فيلزم على قولهم وصف المنافقين بالإيمان! ؛ وقد قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون:١] ، فكيف يجرؤون على تسمية من قال بلسانه فقط مؤمنا، والله قد أكذبه .

3) الطائفة الثالثة من المرجئة: [**مرجئة الفقهاء**]، أصحاب أبي حنيفة، وشيخه حماد بن سليمان، وفقهاء الكوفة، وعبادها، الذين يقولون: "الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، أو إقرار بالجنان، يعني بالقلب". فجعلوا الإيمان ركنين: اعتقاد القلب، وقول اللسان، ولكنهم أخرجوا الأعمال عن مسمى الإيمان، إلا أنهم جعلوه من ثمراته، وأن المطيع: محمود في الدنيا، مثاب في الآخرة، وأن العاصي:

مذموم في الدنيا، مستحق للعقاب في الآخرة، ولم يخرجوا مرتكب الكبيرة عن حد الإيمان. ولهذا قال من قال: "إن الخلاف بين مرجئة الفقهاء، وأهل السنة، خلاف لفظي" صوري، والصحيح: أن منه ما هو حقيقي، ومنه ما هو صوري.

فالحق أن الإيمان لابد معه من العمل، فإن قال قائل: إذاً لماذا عطف الله العمل على الإيمان في هذه الآية، وغيرها، والعطف يقتضي المغايرة، فدل ذلك على أن العمل ليس داخلاً في مسمى الإيمان؟ وهذا من أشهر حجج المرجئة.

فعن ذلك جوابان :

الجواب الأول: أن يقال أن هذا من باب عطف الخاص على العام، كما لو قلت: "جاء الطلبة ومحمد"، مع أن محمداً من الطلبة. فيكون من باب عطف الخاص على العام.

الجواب الثاني: أن يقال إن هذا من باب اختلاف المعنى عند الاقتران، وعند الافتراق. فيكون للفظ الواحد معنيان: معنى إذا اقترن بغيره، ومعنى إذا انفرد. فالإيمان عند الانفراد يشمل الاعتقاد، والعمل. وعند الاقتران مع العمل: يختص بالاعتقاد. كما في حديث جبريل لما سأل عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالعقائد الباطنة. ونظائر ذلك في اللغة والاصطلاح، كثير، كما في لفظ "الفقير" و"المسكين"، و"التوبة" و"الاستغفار"،"والبر" و"التقوى"، و"الإثم" و"العدوان".

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ): صيغة مفاعلة، أي: أنها تقع من الطرفين، فيوصي بعضهم بعضًا بالحق الذي جاء عن الله، ورسوله، ويحض بعضهم بعضًا على التمسك به. ولهذا جاء في بعض التفاسير أن (الحق) هو: كتاب الله.

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ): الصبر: في أصل اللغة: هو الحبس.

وأنواعه ثلاثة:

1) الصبر على طاعة الله.
2) والصبر عن معصية الله.
3) والصبر على أقدار الله المؤلمة.

وهو من أعلى مراتب الدين، وورد ذكره في القرآن في نحو تسعين موضعاً. وجاء في الأثر " أن منزلة الصبر من الإيمان، كمنزلة الرأس من الجسد"[٦]. وهو من أمهات الأخلاق، وأصولها.

والتواصي بين أهل الإسلام، في هذه الأزمان، وللأسف، أندر من الكبريت الأحمر - كما يقال -، قل أن يتواصى الناس فيما بينهم، بل إنه يبلغ الحال عند بعض الناس، أن يغض الطرف عن خطأ الآخر، حتى لا يقابله بالمثل!، وهذا علامة خذلان. والواجب على أهل الإيمان أن يتناصحوا، وأن يتواصوا كما أمر الله ﷻ، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان[٧]، والمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى[٨]. ولو أن كل أحد صمت عن خطأ أخيه، لضاعت السنن، ووقع التساهل. لكن إذا قرعت سمع الإنسان نصيحة أخيه، فربما يندهش لأول وهلة، ويزعجه ذلك، لكنه يحمد العاقبة.

فلو تأملنا في هذه الخصال الأربع، التي ذكر الله تعالى، لوجدناها أسباب النجاة، والفلاح، والفوز:

1) إيمان يباشر القلب، ويرسخ فيه.
2) عمل صالح باللسان، والجوارح، يصدقه.
3) تواص بين المؤمنين بالحق، ينصره.
4) تواص بينهم بالصبر، يثبته.

ولو اختل شيء من هذه الأربعة، لوقع الاضطراب، والخلل، فلو فسد أصله، لفسد باقيه، وفرعه، ولو وجد معرفة لا يقترن بها عمل، لما كان ذلك إيمانًا، ولو وجد تصديق، وعمل، لكن بلا تواصٍ بالحق، ولا تواصٍ بالصبر، لنشأ عن ذلك ملل، وفتور، وضعف، وقصور. فلهذا كانت هذه السورة حجة من الله، على عباده، ولو لم ينزل الله ﷻ حجة

---

[٦] مصنف ابن أبي شيبة (35645).

[٧] أشارة إلى قوله ﷺ " إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ صحيح البخاري (481) وصحيح مسلم (2585) .

[٨] أخرجه البيهقي عن سلمان: " الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْيَدَيْنِ، تَقِي إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى " برقم (7692).

سواها، لكفتهم، كما قال الشافعي، وإنما أراد الشافعي – رحمه الله – الأصول الكبار، وإلا فإنه لا غنى للعباد عن معرفة التفاصيل.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: أهمية الوقت، وأنه مضمار الأعمال، التي يترتب عليها الثواب، والعقاب.

الفائدة الثانية: أن الأصل في الإنسان حصول الخسار، بسبب القصور، والتقصير المفضي إلى الهلاك، أما القصور: فإنه طبعي، وأما التقصير: فإنه كسبي، ولا يكاد أحد ينفك من هذين الوصفين إلا من رحم الله.

الفائدة الثالثة: بيان أركان الفوز، والنجاة، وهي الخصال الأربعة المذكورة.

الفائدة الرابعة: أن الإيمان أصل الدين، يعني ما يقوم في القلب، من العقائد الصحيحة، والمعارف النافعة، المصحوبة بالقبول، والرضا، والإذعان.

الفائدة الخامسة: أن العمل داخل في حقيقة الإيمان، ومسماه، فلا يتحقق بدونه.

الفائدة السادسة: أهمية التواصي بالحق، والصبر، بين أهل الإيمان.

الفائدة السابعة: عظم منزلة الصبر من الدين.

سورة الهمزة

مقصد السورة:

هذه السورة لها مقصد عظيم: وهو بيان الصلة الوثيقة بين العقيدة، والسلوك؛ إذ أن الله ﷻ يكشف حال الكافر، وطبيعته النفسية، وتأثيرها على سلوكه الشخصي المشين، الناتج عن عقيدته الكفرية بالبعث.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾(وَيْلٌ) كلمة وعيد، وتهديد. وقيل: إنها اسم وادٍ في جهنم.(لِكُلِّ) هذا من ألفاظ العموم. (هُمَزَةٍ) أي: كثير الهمز. و(لُمَزَةٍ) أي: كثير اللمز. وكلاً من (هُمَزَةٍ) و(لُمَزَةٍ)، صفة لموصوف.

فمعنى (هُمَزَةٍ):

- قيل: هو المغتاب.
- وقيل: هو الطعان، أي: الذي يطعن في الناس، بعيبهم، وذمهم.
- وقيل: إن الهمز ما كان على سبيل المواجهة، يعني: وجها لوجه.
- وقيل: إن الهمز ما يكون باليد، إما بإشارة، أو بضرب، ودفع، وما أشبه.

ومعنى (لُمَزَةٍ):

- قيل - أيضا -: هو الطعان. وقيل: هو المغتاب. يعني: من قال إن (الهمزة) هو المغتاب، قال (اللمزة) الطعان. وبالعكس، من قال (اللمزة) الطعان قال (الهمزة) هو المغتاب، وكل هذا مروي عن السلف.
- كما قيل - أيضا -: إن (اللمزة) ما كان من خلف، بأن ينال منه بعد انصرافه، من خلفه.

- كما قيل - أيضا -: إن (اللمزة) ما يكون باللسان.

وهذه السورة نزلت في شخص معين؛ قيل: الأخنس بن شريق، وقيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: بعض سادات قريش، لأنهم كانوا يهمزون، ويلمزون النبيﷺ، في مجالسهم، وإذا قابلوه. والواجح عامة في كل كافر، اتصف بهذا الوصف[٩].

ولا يزال المرء يجد من الكفار، بل ومن بعض الفساق، من تشوبه هذه الشائبة، فتجده ينال من أهل الطاعة، والإيمان، بالهمز، واللمز، والسخرية، والتنقص، في حضورهم، وفي غيبتهم، وربما تناوله بيده، وربما تناوله بلسانه. وقد وصف الله هذا المسلك الذميم، في سورة المطففين، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾ [المطففين: 29 - 33]

ومجموع ذلك يحكي صفة شخص، ذي أذية، بالغة، حسيةٍ، ومعنويةٍ، فهو يجابه الناس بالسوء من القول، ويهاجمهم بأقذع السباب. وإذا انصرفوا، أو انصرف عنهم، نال منهم، في غيبتهم. وربما استعمل يده، كما يستعمل لسانه، إما بإشارة ذات دلالة سيئة، أو بكلام بذيء، فلا يسلم من أذيته أحد، وهذه هي شخصية الكافر، الذي تمكن الشر من قلبه. ليس هذا فحسب، بل ذكر الله من أوصافه ما يلي:

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾ (جَمَعَ) هكذا قُرئت بتخفيف الميم، وقُرئت بالتشديد (جمَّع)، فهو قد كدس الأموال.

(مَالًا) أي: جميع أنواع المال، فيشمل: المال المضروب (النقدين)، والإبل، والبقر، والغنم، والأثاث، والعقار، وغيرها من أنواع المال.

(وَعَدَّدَهُ):

---

[٩] تفسير الطبري (24/619-620).

- إما أن يكون معناها مأخوذاً من العدِّ، أي الإحصاء.

- وإما أن يكون من الإعداد، أي أعده لحوادث الدهر.

فلا تجد الكافر إلا لاهثًا خلف الحياة الدنيا؛ لأنها غاية مراده، ومنتهى أمانيه، فلذلك يجرون خلفها، ولا يبحثون إلا عن شهواتهم، ومتعهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد:12].

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣﴾: (يَحْسَبُ) أي: يظن.

(أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) جعله خالدا، لا يموت! هكذا خيل إليه.

واعلم أن للعقيدة أكبر الأثر في سلوك الإنسان، فإنك تجد الإنسان، غافلاً، لاهيًا، غليظًا، فظًا، فاجرًا، فإذا ما سكن الإيمان قلبه، أكسبه تهذيبًا في الطباع، وسماحة في الأخلاق، وكرمًا في المعاملة، ورحمة بالخلق، وتورعًا عن أذيتهم، ورقة، ولينًا، حتى إنه ليبكي على ما بدر منه في جاهليته الأولى.

وقد جاء في حديث أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ: فَقَالَ: "مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: "الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ"متفق عليه[10].

فانظر ما أثقل وطأة الكافر،حتى على الأرض! فكيف بساكنيها! الكل يتأذى من الكافر، الكل يلعن الكافر، حتى اللقمة يرفعها إلى فيه تلعنه، والشربة يرفعها إلى فيه تلعنه. فالإيمان رحمة، والكفر نقمة.

وإذا كان الارتباط بين العقيدة والسلوك، بهذه المكانة، فينبغي أن نفقه العقيدة لا بوصفها متون تحفظ، وتستشرح، فحسب، بل يقين في القلب، مستعلن باللسان، باعث للعمل في الجوارح والسلوك.

---

[10] صحيح البخاري (6512)، صحيح مسلم (950).

﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ ﴾

(كَلَّا) كلمة ردع، ومعناها: ليس الأمر كما ظن.

(لَيُنْبَذَنَّ) اللام: لام القسم، يعني: والله لَيُنْبَذَنَّ، أي: يطرحن، ويقذفن، وما أشبه.

والنون: هي نون التوكيد المثقلة. واللام والنون يدلان على مزيد التأكيد.

(فِي الْحُطَمَةِ) الْحُطَمَةِ: اسم من أسماء النار، والمقصود: التي تحطم كل ما يلقى فيها.

فكل ما ألقي فيها يعود حطيمًا.

وما أنسب هذا الوصف في هذا السياق!!؛ ففي حين أن هذا الهمزة، اللمزة، جمع مالاً، وعدده، وراكمه، وكثره، في الدنيا، حتى بدا وكأنه جبل، فإذا به في الآخرة يطرح هو، وما جمع، في الحطمة، فتحطم كل ما جمع، ويذهب هباء منثورًا.

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ ﴾ يعني: ما أعلمك ما الحطمة؟. وهذا السؤال للتهويل.

(نَارُ اللَّهِ) هذا جواب السؤال. وإضافة النار إلى الله، ليست إضافة تشريف، كبيت الله، وعبد الله، بل إضافة تعظيم، وتهويل.

(الْمُوقَدَةُ) أي: المسعرة. وأما حديث أبي هريرة، الذي رواه الترمذي، وابن ماجة: «أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ» [11] فهو ضعيف.

والنار، كما الجنة، مخلوقتان الآن، وباقيتان، لا تفنيان.

(الَّتِي تَطَّلِعُ) أي: تشرف.

(عَلَى الْأَفْئِدَةِ) أي: القلوب، فتحرقها، وتشويها، داخل الأضلاع، وتؤلمها أشد الإيلام.

﴿ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ ٨ ﴾: فسرها السلف بقولهم: مطبقة، فهم لا يستطيعون الخروج منها.

---

(١١) سنن الترمذي (2591) ضعفه الألباني.

كما قال الله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج:22]. وشعور السجين، أو الأسير، بالإغلاق، يضاعف حزنه، فلربما بقي الإنسان في الموضع الواحد، أيامًا طوالاً، وهو يشعر أنه لو شاء أن يخرج لخرج، فيهون عليه الأمر. وربما استمتع بالمكث! لكن لو أغلق عليه، ولو في بستان، لشعر بالضيق، والكرب، بسبب الحبس، فيجتمع عليه العذاب النفسي، والعذاب الحسي - والعياذ بالله.

﴿ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴿٩﴾ ﴾ هكذا (عَمَدٍ) بفتح العين والميم، وقُرئت بضمهما (في عُمُد ممددة).

أي أن النار ممتدة، داخل هذه الأعمدة، كما تمد الخيام على الأعمدة. وهذا أمر غيبي، لا ندرك كيفيته بعقولنا، ولكن تصوره يشعر بالرهبة، والشدة، وطول العذاب، الذي ينال الهمزة اللمزة.

الفوائد المستنبطة

الفائدة الأولى: تفنن الكافر في أذية المؤمن، أذية حسية، ومعنوية.

الفائدة الثانية: تعلق الكافر بمتاع الدنيا.

الفائدة الثالثة: اغترار الكافر بالمتاع الزائل، وخطأ ظنونه.

الفائدة الرابعة: الوعيد الماحق للكافر.

الفائدة الخامسة: شدة عذاب النار.

الفائدة السادسة: الارتباط الوثيق بين العقيدة، والسلوك.